تقديم

سماح إدريس

«أنا لم أكن معنياً بتقديم سردٍ فلسطينيّ أو سردٍ قومي، لأنني لم أعتبر نفسي قطّ مؤيِّداً للفلسطينيين أو العرب، أو معارِضاً لإسرائيل أو اليهود. بل اعتبرتُ نفسي دائماً باحثاً وبصيغة تقليدية».

لعلّ هذا التصريح الواضح الذي يُطلقه نورمان فينكِلْستين أن يلخّص مسيرةَ هذا المثقف الأميركيّ المميَّز. فطوال مسيرته الأكاديميّة حاول فنكلستين أن يبحث عن الحقيقة، وأن «يقولها في وجه القوة»، على نحو ما دعا الى ذلك صديقُه وأستاذُه نعوم تشومسكي منذ الستّينات. ولم يكن يعنيه أن يكون مؤيِّداً لهذا الطرف أو ذاك، بل كان دأبهُ أن يواصل دربَ أولئك المثقفين التقليديين ـ بالمعنى النبيل للكلمة ـ الذي نقّبوا في المراجع والجرائد والسجلّات ونشرات الأخبار العتيقة لكي يَجْلوا عن وجه الحقيقة صَدَأ الأيام، وخرافاتِ السلطات، وانحيازاتِ مؤرِّخيها.

وربّما كان أهم ما يميِّز «تقليدية» فنكلستين النبيلة أنّه يؤمن بأنّ ثمة حقيقةً قابعةً في مكانٍ ما، لا أنها غيرُ موجودة إلاّ في أوهام المثقفين وعقولهم. فثمة شعبٌ هندي أصليّ طُرد، وذُبِح، وألغي من خارطة بلاده؛ وثمة شعبٌ فلسطيني طُرد، وذُبِح، ويُراد له ـ بشتّى وسائل القمع والحيل السياسية ـ أن يُلغى من خارطة بلاده هو أيضاً. وأما «وجهات النظر» الأخرى ـ الإسرائيلية الاستيطانية، والأميركية الإمبريالية ـ فليست أصواتاً أخرى تضيف الى الحقيقة شيئاً، بل هي مجرّدُ أكاذيبَ وخرافاتٍ تطمس وجهَ الحقيقة من أجل مزيدٍ من السيطرة والسُّحق والإلغاء العِرْقي.

وعلى الرغم من أنّ فنكلستين يؤكّد أنّه لم يعتبر نفسه أبداً مؤيّداً للفلسطينيين أو العرب، فليسمحْ لنا أن نؤكّد له أنّه من أخلص المؤيدين وأصفاهم ضميراً وأجهرهم رأياً. فليس ـ في حد علمي ـ باحثٌ أميركي يكرهه الصهاينة في الولايات المتحدة كما يكرهون نورمان فنلكستين. وقد حدث أنْ حاضر ذاتَ يوم في مركز الشرق الأوسط في جامعة كولومبيا في نيويورك ـ حيثُ كنتُ ما أزال طالباً ـ فشتمه الصهاينةُ ولم يَدَعُوه يُتِمّ محاضرته، بل نعتوه بأوصافٍ «لاساميةٍ»، رغم أنه يهوديّ ومن أبٍ وأمٍ نَجَوا من غيتو وارسو ومعسكرات الإبادة النازية. ويُمنع فينكلستين إلى يومنا هذا من أن يحصل على منصبٍ راقٍ في أيِّ جامعةٍ يكافئُ جدارتَه الأكاديمية الفائقة التي يشهد لها كبارٌ أمثال نعوم تشومسكي وإدوارد سعيد، منذ اللحظة التي قرّر فيها أن تكون أطروحةُ الدكتوراه التي قدّمها في جامعة برنستون نقضاً لأساطير صهيونية متمثلةٍ في كتاب جون بيترز: **منذ زمن سحيق**.

على أنّ فنكلستين لم يسمح لنفسه إلاّ أن يجهر أيضاً بمقته الشديد للقيادة الفلسطينية العرفاتية، التي بدّدتْ ـ في رأيه ـ نضالَ الشعب الفلسطيني وأزهقتِ انتفاضته الباسلة. بل هو يذهب في البحثين اللّذين ننشرهما هنا، كما في المقابلة المشوّقة التي تتبعهما، إلى أنّ معاهدة أوسلو هي التتويج الأخير للغزو الإسرائيلي، وربّما بدايةُ نهايةِ فلسطين برمّتها.

غير أنّ أهمّ ما يميِّز عمل فنكلستين في السنتين الأخيرتين هو ربطُه بين العقلية الإمبريالية الأميركية والعقلية الاستيطانية الإسرائيلة. وهو، من هذه الناحية، يذهب الى أبعد ممّا ذهب إليه تشومسكي نفسه في كتابه الممتاز **المثلّث المصيري**، لأنّه يتوغّل الى نصوص روزفلت وڤان بيورن وپول روجن وباربور وأندرو جاكسون وغيرهم من قادة الولايات المتحدة ومؤدلجيها «البيض»، ليكشف عن تشابه الحجج التي ساقها هؤلاء لاستعمار أراضي الأصلانيين، والحججِ التي ساقها ويسوقها اليومَ القادةُ الصهاينةُ لمواصلة استعمار فلسطين.

وأخيراً، فإنّه ليس من العبث ولا التجني أن تكرّس **الآداب** في الذكرى الخمسين لنكبة فلسطين ثلاثين صفحةً كاملةً تنضح بالنقد لمعاهدات أوسلو. ذلك لأننا نؤمن أن لا معنى للحديث عن هذه الذكرى إلا بالحرص الشديد على حثّ الفلسطينيين على إلغاء هذه المعاهدات المشينة التي تَقْرض الأرض من تحت أقدامهم في الوقت الذي توهمهم فيه أنها تعطيهم «استقلالاً ذاتياً».

إنّ نكبة فلسطين ليست في تحالف إسرائيل مع الغرب فحسب، بل هي كذلك في ارتماء حفنةٍ من قياداتها السياسية عند أعتاب الحل الأميركي. ولنتذكّرْ، مع فينكلستين، أن الأمر لا يتعلق بالنوايا الحسنة لهذا القائد أو ذاك من القيادات المستسلمة (التي تعصى أحياناً، وعلى سبيل التمويه، أوامر أسيادها!)، بل بمسارٍ كاملٍ من إرضاء الغرب طمعاً بمكاسب شخصيّة تافهة.